القول المختصر في بيان موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر

أسامة العتيبي
المدينة النبوية

إنَّ الله تعالى قد تكفَّل بحفظ دينه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وهيَّأ لدينه حملة يحملونه ويحمونه، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ»[1].

وما زال أهل الشَّرِّ والضَّلال يكيدون لدين الإسلام، ويحاولون تشويهه، وتصويره بالصُّور المنفِّرة، وما زال أهل السُّنَّة قائمين بالذَّبِّ عن حياض الإسلام، كاشفين لتلبيس الملبِّسين، وعبث العابثين.

ومن أهل الشَّرِّ والفساد الَّذين يجري في دمائهم التَّلبيس والتَّدليس المستشرقون الَّذين يرجع غالبهم إلى اليهود والنَّصارى الَّذين قال الله فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١﴾ [آل عمران].

ومن محاولاتهم العبثيَّة الَّتي بنوها على ضلالهم وجهلهم بدين الحقِّ، والَّتي بنوا عليها محاولة تشويههم دين الإسلام؛ ما يتعلَّق بعقيدة القضاء والقدر.

فكان هذا البحث لعرض شيء من تمويهاتهم وكشف زَيْفها، وسمَّيته:

«القول المختصر في بيان موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر».

المبحث الأول:
الإيمان بالقضاء والقدر عند أهل السُّنَّة والجماعة

الإيمان بالقدر خيره وشرِّه هو الرُّكن السَّادس من أركان الإيمان الَّتي لا يصحُّ عمل عامل إلاَّ بالإيمان به، كما جاء في القرآن الكريم وسنَّة نبيِّنا ﷺ، وعلى ما كان عليه أهل القرون المفضَّلة - رحمهم الله -.

(1) رواه ابن أبي حاتم في «الجرح والتَّعديل» (17/2)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (209/10)، وابن عبدالبرِّ في «التَّمهيد» (59/1)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص29) عن إبراهيم العذري به، ونقل الخطيب البغدادي عن الإمام أحمد تصحيحه للحديث مع أنَّه مرسل، وللحديث شواهد؛ لذلك صحَّحه شيخنا الألباني رحمه الله في تعليقه على «مشكاة المصابيح» (248).

وهو الإيمان بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ علِمَ مَقَادِيرَ الأَشْيَاءِ وَأَزْمَانَهَا أزَلاً، ثُمَّ أَوْجَدَهَا بقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ عَلَى وَفْقِ مَا عَلِمَهُ مِنْهَا، وَأَنَّهُ كَتَبَهَا فِي اللَّوْحِ قَبْلَ إِحْدَاثِهَا[2].

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42، 44]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة].

وفي حديث جبريل أنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكر له من الإيمان: «وَتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[3].

وقال ﷺ: «وَتَعْلَم أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[4].

(2) «شرح العقيدة الواسطيَّة» لمحمَّد خليل هرَّاس (ص27).

(3) رواه مسلم في «صحيحه» (8) من حديث عبدالله ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما.

(4) رواه الإمام أحمد في «المسند» (185/5)، وأبو داود في «سننه» (4699)، وابن ماجه في «سننه» (65)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح الجامع» (5120).

وقال ﷺ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»[5].

وقال ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ»[6].

والإيمان بالقدر على أربع مراتب:

- **المرتبة الأولى**: الإيمان بعلم الله المحيط بكلِّ شيء الَّذي لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض، وأنَّه تعالى قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم وسرَّهم وعلانيَّتهم ومن هو منهم من أهل الجنَّة ومن هو منهم من أهل النَّار.

- **المرتبة الثَّانية**: الإيمان بكتابة ذلك، وأنَّه تعالى قد كتب جميع ما سبق به علمه أنَّه كائن، وفي ضمن ذلك الإيمان باللَّوح والقلم.

- **المرتبة الثَّالثة**: الإيمان بمشيئة الله النَّافذة وقدرته الشَّاملة، وهما متلازمتان من جهة ما كان وما سيكون، ولا ملازمة بينهما من جهة ما لم يكن ولا هو كائن؛ فما شاء الله تعالى فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله إيَّاه، لا لعدم قدرة الله عليه، تعالى الله عن ذلك وعزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾ [فاطر].

(5) رواه مسلم في «صحيحه» (2664) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(6) رواه مسلم في «صحيحه» (2655) من حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما.

- **المرتبة الرَّابعة**: الإيمان بأنَّ اللّه تعالى خالق كلِّ شيء، وأنَّه ما من ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض ولا فيما بينهما إلاَّ واللّه خالقها وخالق حركاتها وسكناتها سبحانه، لا خالق غيره ولا ربَّ سواه[7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَالإِيمَانُ بالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:

فالدَّرجة الأولى: الإيمان بأنَّ اللّه تعالى عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الَّذي هو موصوف به أزلاً وأبدًا، وعلم جميع أحوالهم من الطَّاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثمَّ كتب اللّه في اللَّوح المحفوظ مقادير الخلق...

وهذا التَّقدير التَّابع لعلمه - سبحانه - يكون في مواضع جملةً وتفصيلاً، فقد كتب في اللَّوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل خلق الرُّوح فيه؛ بعث إليه ملكًا فيُؤمر بأربع كلمات، فيُقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌّ أم سعيدٌ، ونحو ذلك.

فهذا التَّقدير قد كان ينكره غلاة القدريَّة قديمًا ومنكروه اليوم قليل.

وأمَّا الدَّرجة الثَّانية: فهي مشيئة اللّه النَّافذة وقدرته الشَّاملة، وهو الإيمان بأنَّ ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه ما في السَّموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلاَّ بمشيئة اللّه سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنَّه - سبحانه - على كلِّ شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

فما مِنْ مخلوق في الأرض ولا في السَّماء إلاَّ اللّه خالقه - سبحانه - لا خالق غيره ولا ربَّ سواه، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته، وهو - سبحانه - يحبُّ المتَّقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، ولا يحبُّ الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحبُّ الفساد.

والعباد فاعلون حقيقةً، واللّه خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر والمصلِّي والصَّائم.

وللعباد القدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، واللّه خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة التكوير]»[8].

قال الشَّيخ محمَّد الأمين الشَّنقيطي رحمه الله عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [سورة الأنعام]: «فملكه تعالى وحده للتَّوفيق والهداية، هو الحجَّة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضَّلنا عليه بالتَّوفيق، فهو فضل منَّا ورحمة، ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منَّا وحكمة؛ لأنَّه لم يكن له

(7) انظر لشرحها وأدلَّتها: «شفاء العليل» لابن القيِّم (ص29 - 54)، و«أعلام السُّنَّة المنشورة» للشَّيخ حافظ الحكمي (ص126).

(8) «العقيدة الواسطيَّة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص34 - 38).

ذلك دينًا علينا ولا واجبًا مستحقًا يستحقُّه علينا، بل إنْ أَعطينا ذلك ففضل، وإن لم نُعْطِه فعدلٌ، وحاصل هذا أنَّ الله - تبارك وتعالى - قدَّر مقادير الخلق، قبل أن يخلق الخلق، وعلم أنَّ قومًا صائرون إلى الشَّقاء، وقومًا صائرون إلى السَّعادة، فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير.

وأقام الحجَّة على الجميع، ببعث الرُّسل وتأييدهم بالمعجزات الَّتي لا تترُك في الحقِّ لَبْسًا، فقامت عليهم حجَّة الله في أرضه بذلك»[9].

وقال رحمه الله: «ولا يَخفَى تصريح القرآن بأن الله تعالى خالق كلِّ شيء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: 16]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]»[10].

□□□

المبحث الثَّاني
موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر والرَّدُّ عليهم

المطلب الأوَّل: موقف المستشرقين من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر:

من المعلوم أنَّ من مقاصد المستشرقين تشكيك المسلمين في عقائدهم، ومحاولة تنفيرهم عنها، وهذا ما وقع منهم فيما يتعلَّق بعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، حيث قال المستشرق «جيته»: «إنَّ هذه العقيدة فكرة إسلاميَّة خاصَّة، وإنَّ المحمَّديِّين يقومون بتعليمها إلى شبابهم على أنَّه لا يصيبهم إلاَّ ما قدَّر الله ودبَّر بإرادته، وهذا أساس دينهم منذ الأزل»[11].

فهذا المستشرق يزعم أنَّ الإيمان بالقضاء والقدر، وأنَّ ما يصيب المرء إنَّما هو بقدر الله وإرادته وتدبيره عقيدة خاصَّة بالمسلمين! مع أنَّها من العقيدة الَّتي اتَّفق عليها الأنبياء والمرسلون - عليهم الصَّلاة والسَّلام - كما سيأتي بيانه، إن شاء الله.

وزعم المستشرقون أنَّ الإيمان بهذه العقيدة كان سببًا في تخلُّف المسلمين عن ركب الحضارة، وكان دعوة إلى التَّواكل والخمول والكسل وعدم السَّعي للعمل اعتمادًا على أنَّ الله قدَّر عليهم كلَّ شيء، وأنَّه لن يصيبهم إلاَّ ما كتب لهم، فهم نتيجةً لهذا المعتقد مستسلمون.

(9) «أضواء البيان» (7/238 - 239).

(10) المصدر السَّابق (7/324 - 325).

(11) انظر: «من افتراءات المستشرقين على الأصول العقديَّة في الإسلام» (ص251).

قال جولد تسهير: «إنَّ هذه الآيات بينها تناقض وتنافر وهي سبب وجود المذاهب المتعارضة في الإسلام في مسألة حريَّة الإرادة والقدرة»[12].

وهذا الكلام باطلٌ واضحُ البطلان عقيدةً وتاريخًا وواقعًا، كما سيأتي ذكره، إن شاء الله.

وزعم المستشرقون أنَّ نبيَّنا ﷺ في الأزمان الأولى للعصر المكِّي كان يتلو آيات تتَّجه إلى حريَّة الاختيار والمسؤوليَّة، ويقبلها تمامًا[13].

أمَّا في المدينة؛ فكان يذكر آيات تتَّجه للجبر، لذا فالتَّعاليم الأكثر جبريَّة تميَّزت بها فترة المدينة!!

وهذا من جهلهم وضلالهم، فالعقيدة الإسلاميَّة بعيدة عن غلوِّ الجبريَّة وجفاء القدريَّة، بل هي عقيدةٌ وسطٌ، بلا إفراط ولا تفريط، كما سبق بيانه في المبحث الأوَّل.

المطلب الثَّاني: الرَّدُّ على شبهات ومزاعم المستشرقين في عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر:

تتلخَّص مزاعم المستشرقين حول عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر أنَّها عقيدةٌ خاصَّة بالمسلمين، وأنَّها تدعو إلى الخمول والاستسلام للواقع، وأنَّها تتَّجه للجبر!

وهذا باطل بما يلي:

أولاً: أنَّهم زعموا في القول الأوَّل أنَّ هذه العقيدة الَّتي يعلِّمها المسلمون لشبابهم، والَّتي يخضع المرء فيها لمشيئة الله وتقديره عقيدة مبتدعة عند المسلمين وخاصَّة بهم، وهذا قول مخالف للواقع؛ «لأنَّ الشُّعور بالسُّلطة العليا معروف في أديان الله كلِّها، وليست خاصَّة بالمسلمين»[14].

بالإضافة إلى أنَّه معروف في النِّحَل والفلسفات القديمة، وإن كان هناك انحراف عن الأديان في مفهوم القدر.

وقد قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (١٥٥) ﴾ [سورة الأعراف].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾، أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك...، يقول: إنِ الأمرُ إلاّ أمرُك، وإنِ الحكمُ إلاّ لك، فما شئت كان، تضلُّ من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هاديَ لمن أضلَلْتَ، ولا مُضِلَّ لمن هَدَيت، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنَعت، ولا مانع لِمَا أعطيت، فالملك كلُّه لك، والحكم كلُّه لك، لك الخلق والأمر»[15].

ومن الآيات الَّتي تبيِّن أنَّ عقيدة الإيمان بالقدر كانت عند من قبلنا من الأنبياء والرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ:

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا

(12) المصدر السَّابق (ص252).

(13) المصدر السَّابق.

(14) انظر: «من افتراءات المستشرقين على الأصول العقديَّة في الإسلام» (ص252).

(15) «تفسير ابن كثير» (2/251).

﴿يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾ [سورة هود].

وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [سورة الصافات].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [سورة يوسف].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)﴾ [سورة آل عمران].

فتبيَّن أنَّ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عقيدةٌ اتَّفقت عليها الرِّسالات السَّماوية، وأنَّ المستشرقين يسيرون في فلك اللادينيَّة والوثنيَّة.

ثانيًا: وأمَّا زعمهم أنَّ الإسلام يدعو إلى الكسل والتَّواكل فهذا باطل نقلاً وواقعًا.

1. فقد حثَّ الله في كتابه الكريم على العمل، وقرن العمل الصَّالح بالإيمان في مواطن كثيرة جدًّا من كتابه، بل أجمع أهل السُّنَّة والجماعة على أنَّ الإيمان قولٌ وعمل، وأنَّه لا ينفع إيمانٌ بلا عمل.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [سورة التوبة].

قال الإمام الآجري في كتاب «الشَّريعة»: «اعلموا - رحمنا الله وإيَّاكم - يا أهل القرآن، ويا أهل العلم بالسُّنن والآثار، ويا معشر من فقَّههم الله تعالى في الدِّين، بعلم الحلال والحرام؛ أنَّكم إن تدبَّرتم القرآن، كما أمركم الله تعالى؛ علمتم أنَّ الله تعالى أوجب على المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله: العملَ، وأنَّه تعالى لم يثن على المؤمنين بأنَّه قد رضي عنهم، وأنَّهم قد رَضوا عنه، وأثابهم على ذلك الدُّخول إلى الجنَّة، والنَّجاة من النَّار، إلاَّ بالإيمان والعمل الصَّالح.

وقرن مع الإيمان العمل الصَّالح، لم يدخلهم الجنَّة بالإيمان وحده، حتَّى ضمَّ إليه العمل الصَّالح، الَّذي وفَّقهم له، فصار الإيمان لا يتمُّ لأحد حتَّى يكون مصدِّقًا بقلبه، وناطقًا بلسانه، وعاملاً بجوارحه، لا يخفى على من تدبَّر القرآن وتصفَّحه، وجدَهُ كما ذكرتُ.

واعلموا - رحمنا الله تعالى وإيَّاكم - أنِّي قد

تصفَّحتُ القرآن؛ فوجدت فيه ما ذكرته في شبيهٍ من خمسين موضعًا من كتاب الله ﷻ: أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يدخل المؤمنين الجنَّة بالإيمان وحده، بل أدخلهم الجنَّة برحمته إيَّاهم، وبما وفَّقهم له من الإيمان والعمل الصَّالح.

وهذا ردٌّ على من قال: الإيمان: المعرفة، وردٌّ على من قال: المعرفة والقول، وإنْ لم يعمل، نعوذ بالله من قائل هذا.

فإن قال قائلٌ: فاذكر هذا الَّذي بيَّنته من كتاب الله تعالى؛ ليستغنيَ غيرُك عن التَّصفُّح للقرآن.

قيل له: نعم، والله تعالى الموفِّق لذلك، والمعين عليه.

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة البقرة].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [سورة البقرة].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ في سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.. ـ إلى أن قال: ـ كلُّ هذا يدلُّ العاقل على أنَّ الإيمان ليس بالتَّحلِّي ولا بالتَّمنِّي، ولكن ما وقر في القلوب، وصدَّقته الأعمال، كذا قال الحسن وغيره»[16].

فقد «آمن المسلمون الأوائل بالقضاء والقدر، واعتقدوا أنَّ قضاء الله لابدَّ أن ينفذ، وأنَّ المقادير كلَّها بيده، يصرفها كيف شاء، ويدبِّرها بحكمته وإرادته، ولم يَصرِفهم ذلك عن العمل والسَّعي، ولم يركنوا إلى التَّواكل والكسل؛ لأنَّ الله قد حثَّهم على العمل بقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [سورة التوبة]، وقد نهى الرَّسول ﷺ المسلمين عن الجدل في القدر؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى تفرُّقهم، ولكن خاض المسلمون بعد وفاته في مسألة القدر، وظهرت جماعة الجبريَّة الَّذين قالوا بالجبر المطلق، وعلى الرُّغم من أنَّ هذه الفكرة بعيدة عن منطق الإسلام، فقد وجدت لها أنصارًا رأوْا فيها تبريرًا لِما هم فيه من ضلال، ولكن لم يُقدَّر لها الرَّواج بين المسلمين في العهود الأولى؛ لأنَّها لا تستند إلى أساس قويٍّ، ولم تستطع أن تصمد أمام المذاهب المناوئة، ثمَّ وجدت الفرصة متاحة لإذاعتها بين المسلمين في عهود الرُّكود الَّتي ساد فيها الجمود الفكري، وابتعد فيها كثير من المسلمين عن روح الدِّين وعن الفهم الصَّحيح لمبادئه، وكان للقمع الاستعماري دورٌ كبير في انتشار هذه الفكرة بين جهلة المسلمين وبعض أهل البدع والضَّلال، حيث أشاعت فيهم التَّواكل

(16) انظر: «كتاب الشَّريعة» للآجُرِّي (2/618ـ636).

والكسل، وأقعدتهم عن العمل»[17].

2- وكلام المستشرقين باطل واقعًا: فالمسلمون الَّذين صحبوا رسول الله ﷺ منذ أن كان في مكَّة، ثمَّ في المدينة - وهم أهل الجدِّ والاجتهاد - جاهدوا معه، وقاموا بالتَّكاليف الشَّرعيَّة، وبذلوا الغالي والنَّفيس في طاعة الله ورضوانه، ولم يتوانوا ولم يكسلوا، بل كان الكسل في أداء الطَّاعة والتَّواكل هو دأب المنافقين المندسِّين في صفوف المسلمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

وفي فترة وجيزة الْتَأَمَتْ جزيرةُ العرب كلُّها تحت لواء نبيِّنا ﷺ، وما مات ﷺ إلاَّ وأقرَّ اللهُ عينه بدخول النَّاس في دين الإسلام أفواجًا بكلِّ جدٍّ ونشاط، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [سُورَةُ النَّصْرِ].

ثمَّ بعد وفاته ﷺ قام الخلفاء الرَّاشدون ومن معهم من الصَّحابة رضي الله عنهم والتَّابعين بنشر تعاليم الإسلام، والعمل على إعلاء كلمة الله، فتهاوت - أمام جدِّهم واجتهادهم وفدائهم دينهم بالنَّفس والمال - عروشُ كسرى وقيصر[18]، فهل هذا حال أهل التَّواكل والخمول؟!!

3- وبعض المستشرقين اعترفوا بفضل المسلمين في علوم الدُّنيا، وأنَّهم قد بلغوا فيها مبلغًا عظيمًا، في حين كانت أوروبا ترزح تحت سطوة القساوسة وفي عصور الظَّلام حسب تقسيماتهم، وقد استفاد الأوروبيُّون من علوم المسلمين ما أسَّسوا به فيما بعد حضارتهم ونهضتهم الحديثة.

ومن ذلك ما قاله المستشرق الإنجليزي الشَّهير «ألفريد جيوم» بأنَّ تأثير الحضارة الإسلاميَّة لم تدرك أبعاده بشكل كاملٍ إلى الآن، يقول: «وعندما ترى ضوءَ النَّهار جميعُ الموادِّ النَّفيسة المختزنة في مكتبات أوربا؛ فسيتَّضح لنا أنَّ التَّأثير العربي الباقي في الحضارة الوسيطة لهو أعظم بكثير ممَّا عُرِفَ عنه حتَّى الآن»[19].

«..أنَّ التَّاريخ يبرهن وراء كلِّ إمكان للرَّيب أنَّه ما مِنْ دين أبدًا حثَّ على التَّقدُّم العلميِّ كما حثَّ عليه الإسلام وأنَّ التَّشجيع الَّذي لقيه العلم والبحث العلمي من الدِّين الإسلاميِّ انتهى إلى ذلك الإنتاج النَّقي الباهر في أيَّام الأمويِّين والعبَّاسيِّين وأيَّام دولة العرب في الأندلس.

وإنَّ أوروبا لتعرف ذلك حقَّ المعرفة؛ لأنَّ

(17) انظر كتاب: «أصول العقيدة الإسلاميَّة» (ص250) تأليف: د. عبدالمقصود عبدالغني.

(18) ولعلَّ هذا الأمر من إجلاء اليهود ثمَّ سقوط عروش كسرى وقيصر هو الَّذي يشجِّعهم على الكذب والتَّزوير حقدًا دفينًا وألَمًا يعصر قلوبهم بسبب غلبة الإسلام وظهوره على أعدائه من اليهود والنَّصارى والمجوس.

(19) انظر: «الفلسفة وعلم الكلام» لألفريد جيوم (ص401).

ثقافتها هي نفسها مدينة للإسلام بتلك النَّهضة على الأقلِّ بعد قرون من الظَّلام الدَّامس، نحن لا نقول ذلك إعجابًا منَّا بتلك الذِّكريات المجيدة في زمن هجر العالم الإسلامي فيه تقاليده الخاصَّة وانتقل إلى العماية وإلى الفقر الفكري، إذ لا يحقُّ لنا في بُؤسنا الحاضر أن نفتخر بالأمجاد الماضية»[20].

وفي العصر الحديث قام الغرب بقمع كثير من المسلمين، والفتك بهم حتَّى لا يصلوا إلى ما وصلوا إليه من حضارة، ومن رأوا فيه النَّفع لهم احتكروه لأنفسهم بالتَّرغيب والتَّرهيب، ومن كان مخلصًا لدينه، يريد نفع بلده منعوه من ذلك ولو باغتياله والقضاء عليه»[21].

ثالثًا: وأمَّا زعمهم أنَّ الآيات المكِّيَّة كانت تتَّجه للاختيار! وأنَّ المدنية تتَّجه للجبر! فهذا من الكذب والافتراء، فالقرآن الكريم يصدِّق بعضه بعضًا، وعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة اتَّفق عليها الأنبياء والرُّسل - عليهم الصَّلاة والسَّلام -، ولم تختلف من نبيٍّ إلى نبيٍّ، ولا من جيل إلى جيل، ولا من أمَّة إلى أمَّة، فكيف تختلف في رسالة رسول واحد جاء داعيًا إلى ملَّة إبراهيم - عليه الصَّلاة والسَّلام -، داعيًا إلى توحيد ربِّ العالمين، جاء داعيًا إلى ما كان عليه الرُّسل من قبله، فدين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة في الأحكام الفرعيَّة.

ففي الآيات المكيَّة إثباتٌ أنَّ العبد له اختيار، وإثبات أنَّه يستمدُّ هدايته من الله وهو ما يصفه أولئك المستشرقون بأنَّه عقيدة الجبر!

قال تعالى في سورة الإسراء وهي مكيَّة: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، وهذه الآية صريحة بأنَّ العبد له اختيار وإرادة.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، فهذه الآية واضحة في أنَّ الهداية بيد الله، ومن أراد الله إغواءه فلن يجد له من دون الله ناصرًا.

وهذا المعنى كثيرٌ في السُّور المكيَّة كما قال تعالى في سورة الزُّمَر وهي مكيَّة: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴿٣٧﴾﴾، وقال تعالى في سورة التَّكوير وهي مكيَّة: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وقد جمع الله في هذه الآية بين أنَّ العبد له اختيار ومشيئة، وكذلك هو تحت مشيئة الله.

وهكذا كتابُ الله يصدِّق بعضُه بعضًا، وليس كما زعم هؤلاء المستشرقون.

□□□

(20) انظر: كتاب «قالوا عن الإسلام»، تأليف: الدكتور عماد الدِّين خليل (ص375).

(21) انظر: كتاب «اغتيال العقول الحضارية الموحدة عبر التاريخ - هواية يهودية عريقة»، تأليف: د. رامي محمد سامي دياب.

الخاتمة

تبيَّن ممَّا سبق عرضه أنَّ عقيدة المسلمين في القضاء والقدر: هي عقيدة جميع الأنبياء والرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ، وأنَّها مبنيَّة على الوسطيَّة والاعتدال، فليس فيها غلوُّ الجبريَّة حيث إنَّهم أنكروا اختيار العبد، وزعموا أنَّه مجبور، وأنَّ الفاعل لفعله حقيقة هو الله ﷻ!

ولم يجفوا كما جفا القدريَّة؛ فزعموا أنَّ الله ليس خالقًا لأفعال العباد، وزعموا أنَّ العبد هو الخالق لفعله دون الله ﷻ! فشابهوا المجوس في زعمهم بتعدُّد الخالِقين.

وتبيَّن مدى جهل وضلال المستشرقين، وأنَّهم ما فتئوا يطعنون في دين الإسلام، ويحاولون تشويهه بشتَّى الوسائل والطُّرق.

وتبيَّن أنَّ الرَّدَّ على المستشرقين من أيسر الأمور؛ لأنَّهم يبنون طعونهم على الأكاذيب الواضحة الَّتي لا تنطلي إلاَّ على من كان بعيدًا عن دينه، معرضًا عن تعلُّم عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة.

فأوصي المسلمين بتعلُّم العقيدة السَّلفيَّة، والحذر من عقائد أهل البدع والضَّلال، وليعرفوا طرق أعداء الإسلام ووسائلهم في كيفية تشويه دين الإسلام؛ ليسهل عليهم الرَّدُّ على أعداء الإسلام، وليكونوا منذرين لما وراءهم.

أسأل الله أن يوفِّق جميع المسلمين لِمَا فيه الخير والهدى والصَّلاح، وأن يردَّ كيد الأعداء في نحورهم.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.